



تبعدت كثيراً في مسألة قيام الأمم، فلاحظت أمراً عجيباً، وهو أن فترة الإعداد تكون طويلة جدًا قد تبلغ عشرات السنين، بينما تقصر فترة التمكين حتى لا تكاد أحياً تتجاوز عدة سنوات!!

فعلى سبيل المثال بذل المسلمون جهداً خارقاً لمدة تجاوزت ثمانين سنة؛ وذلك لإعداد جيش يواجه الصليبيين في فلسطين، وكان في الإعداد علماء ربانيون، وقادة بارزون

لعل من أشهرهم عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي رحمهم الله جميعاً، وانتصر المسلمون في حطين، بل حرروا القدس وعدداً كبيراً من المدن المحتلة، وبلغ المسلمون درجة التمكين في دولة كبيرة موحدة، ولكن -ويا للعجب- لم يستمر هذا التمكين إلا ست سنوات، ثم انفرط العقد بوفاة صلاح الدين، وتفتت الدولة الكبيرة بين أبنائه وإخوانه، بل كان منهم من سلم القدس بلا ثمن تقريراً إلى الصليبيين!!

كنت أتعجب لذلك حتى أدركت السنة، وفهمت المغزى.. إن المغزى الحقيقي لوجودنا في الحياة ليس التمكين في الأرض وقيادة العالم، وإن كان هذا أحد المطالب التي يجب على المسلم أن يسعى لتحقيقها، ولكن المغزى الحقيقي لوجودنا هو عبادة الله.. قال تعالى: {وَمَا حَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ} [الذاريات: 56]..

وحيث إننا تكون أقرب إلى العبادة الصحيحة لله في زمن المشاكل والصعوبات، وفي زمن الفتن والشدائد، أكثر بكثير من زمن النصر والتمكين، فإن الله -من رحمته بنا- يطيل علينا زمن الابلاء والأزمات؛ حتى نظل قريبين منه فننجو، ولكن عندما نُمكَن في الأرض ننسى العبادة، ونظن في أنفسنا القدرة على فعل الأشياء، ونفتئ بالدنيا، ونحو ذلك من أمراض التمكين.. قال تعالى: **{هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلُكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءُهُمْ رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَلَّوْا أَنَّهُمْ أَحْيَطُ بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنْكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا يَغْيِكُمْ عَلَى أَنفُسِكُمْ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا**

مَرْجِعُكُمْ فَنَنِيْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [يونس: 22, 23].

ولا يخفى على العقلاء أن المقصود بالعبادة هنا ليس الصلاة والصوم فقط، إنما هو في الحقيقة منهج حياة.. إن العبادة المقصودة هنا هي صدق التوجه إلى الله، وإخلاص النية له، وحسن التوكل عليه، وشدة الفقر إليه، وحب العمل له، وخوف البعد عنه، وقوه الرجاء فيه، ودؤام الخوف منه.. إن العبادة المقصودة هي أن تكون حيث أمرك الله أن تكون، وأن تعيش كيفما أراد الله لك أن تعيش، وأن تحب في الله، وأن تبغض في الله، وأن تصل لله، وأن تقطع لله..

إنها حالة إيمانية راقية تتهاوى فيها قيمة الدنيا حتى تصير أقل من قطرة في يم، وأحقر من جناح بعوضة، وأهون من جدي أَسَكَ ميت..

كم من البشر يصل إلى هذه الحالة الباهرة في زمان التمكين!!
إنهم قليلون قليلون!

ألم يخوتنا حبيبي من بسطة المال، ومن كثرة العرض، ومن افتتاح الدنيا؟!

فتنة المالأم يقل لنا وهو يحذرنا: **فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكُنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْكِكُمْ كَمَا أَهْكَكْتُهُمْ!!**

ألا نجلس معًا، ونأكل معًا، ونفكر معًا، ولنلعب معًا، فإذا وصل أحدها إلى كرسي سلطان، أو سدة حكم، نسي الضعفاء الذين كان يعرفهم، واحتجب عن "العامنة" الذين كانوا أحبابه وإخوانه؟!

ألم يحذرنا حبيبي من هذا الأمر الشائع فقال: **مَنْ وَلَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقِرُهُمْ، احْتَجَبَ اللَّهُ عَنْهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقِرُهُ؟!**

هل يحتجب الفقير أو الضعيف أو المشرد في الأرض؟

لا.. إنما يحتجب الممكّن في الأرض، ويحتجب الغني، ويحتجب السلطان.

إن وصول هؤلاء إلى ما يريدون حجب أغلبهم عن الناس، ومن كانت هذه حاله فإن الله يحتجب عنه، ويوم القيامة سيدرك أنه لو مات قبل التمكين لكان أسلم له وأسعد، ولكن ليس هناك عودة إلى الدنيا، فقد مضى زمن العمل، وحان أوان الحساب.

إن المريض قريب من الله غالب وقته، والصحيح متبطر بيارز الله المعاصي بصحته..

والذي فقد ولده أو حبيبه ينادي الله كثيراً، ويلجأ إليه طويلاً، أما الذي تمت بوجودهما ما شعر بنعمه الله فيهما.. والذى وقع في أزمة، والذى غُيَّب في سجن، والذى طُرد من بيته، والذى ظُلم من جبار، والذى عاش في زمان الاستضعفاف، كل هؤلاء قربيون من الله.. فإذا وصلوا إلى مرادهم، ورفع الظلم من على كواهلهم نسوا الله، إلا من رحم الله، وقليل ما هم.. هل معنى هذا أن نسعى إلى الضعف والفقير والمرض والموت؟

أبداً، إن هذا ليس هو المراد.. إنما أمرنا بإعداد القوة، وطلب الغنى، والتداوي من المرض، والحفاظ على الحياة.. ولكن المراد هو أن نفهم مغزى الحياة.. إنه العبادة ثم العبادة.

مغزى الحياة والتمكين في الأرض ومن هنا فإنه لا معنى للقنوط أو اليأس في زمان الاستضعفاف، ولا معنى لفقد الأمل عند غياب التمكين، ولا معنى للحزن أو الكآبة عند الفقر أو المرض أو الألم.. إننا في هذه الظروف -مع أن الله طلب منا أن نسعى إلى رفعها- تكون أقدر على العبادة، وأطوع لله، وأرجى له، وإننا في عكسها تكون أضعف في العبادة، وأبعد من الله.. إننا لا نسعى إليها، ولكننا "نرضى" بها.. إننا لا نطلبها، لكننا "نصبر" عليها.

إن الوقت الذي يمضي علينا حتى نحقق التمكين ليس وقتاً ضائعاً، بل على العكس، إنه الوقت الذي نفهم فيه مغزى الحياة، والزمن الذي "تعبد" الله فيه حقاً، فإذا ما وصلنا إلى ما نريد ضاع منا هذا المغزى، وصرنا نعبد الله بالطريقة التي "نريد"، لا

بالطريقة التي "يريد"!..

أو إن شئت فقلْ نعبد الله بأهوائنا، أو إن أردت الدقة أكثر فقلْ نعبد أهواءنا!! قال تعالى: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهًا هُوَ أُفَانٌ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا} [الفرقان: 43].

ولذلك كله فإن الله الحكيم الذي يريد منا تحقيق غاية الخلق، الرحيم الذي يريد لنا الفلاح والنجاح قد اختار لنا أن تطول فترة الإعداد والبلاء والشدة، وأن تقصر فترة التمكين والقوة، وليس لنا إلا أن نرضى، بل نسعد باختياره، فما فعل ذلك إلا لحبه لنا، وما أقرَّ هذه السنة إلا لرحمته بنا.

وتذربوا معِ إخواني وأخواتي في حركة التاريخ..

كم سنة عاش نوح - عليه السلام - يدعو إلى الله ويتعجب ويصبر، وكم سنة عاش بعد الطوفان والتمكين؟! أين قصة هود أو صالح أو شعيب أو لوط - عليهم السلام - بعد التمكين؟! إننا لا نعرف من قصتهم إلا تكذيب الأقوام، ومعاناة المؤمنين، ثم نصر سريع خاطف، ونهاية تبدو مفاجئة لنا.

لماذا عاش رسولنا إحدى وعشرين سنة يُعدُّ للفتح والتمكين، ثم لم يعش في تمكينه إلا عامين أو أكثر قليلاً؟! وأين التمكين في حياة موسى أو عيسى عليهما السلام؟! وأين هو في حياة إبراهيم أبي الأنبياء؟! إن هذه النماذج النبوية هي النماذج التي ستتكرر في تاريخ الأرض، وهؤلاء هم أفضل من "عبد الله" ، {بَيْهُدَاهُمْ اُفْتَدِه} [الأنعام: 90].

والآن بعد أن فقهت المغزى لعلك عرفت لماذا لم يعش عمر بن عبد العزيز إلا سنتين ونصف فقط في تمكينه، وأدركت لماذا قُتل عماد الدين زنكي بعد أقل من عامين من فتح الرها، وكذلك لماذا قُتل قطز بعد أقل من سنة من نصره الخالد على التتار في عين جالوت، وكذلك لماذا قُتل ألب أرسلان بعد أقل من عامين من انتصار ملاذكـرـةـ التـارـيـخـيـ، ولماذا لم "يستمـعـ" صلاح الدين بثمرة انتصارـهـ في حطـينـ إلاـ أـقـلـ مـنـ سـنـةـ ثـمـ سـقطـتـ عـكـاـ مـرـةـ أـخـرىـ فـيـ يـدـ الصـلـيـبـيـيـنـ، ولـمـ يـرـعـيـ اللـهـ بـنـ يـاسـيـنـ مؤـسـسـ دـوـلـةـ الـمـرـابـطـيـنـ التـمـكـيـنـ أـصـلـاـ، ولـمـاـ مـاتـ خـيـرـ رـجـالـ دـوـلـةـ الـمـوـحـدـيـنـ أـبـوـ يـعقوـبـ يـوسـفـ المنـصـورـ بـعـدـ أـقـلـ مـنـ أـرـبـعـ سـنـوـاتـ مـنـ نـصـرـ الـبـاهـرـ فـيـ مـوـقـعـةـ الـأـرـكـ.

إن هذه مشاهدات لا حصر لها، كلها تشير إلى أن الله أراد لهؤلاء "العاـبـدـيـنـ" أن يختـموـ حـيـاتـهـمـ وـهـمـ فـيـ أـعـلـىـ صـورـ الـعـبـادـةـ قبل أن تتلوث عبادتهم بالدنيـاـ، وقبل أن يصابـوـ بـأـمـراضـ التـمـكـيـنـ.

إنهم كانوا "يعبدون الله حقاً" في زمن الإعداد والشدة، "فـكـافـأـهـمـ" رـبـنـاـ بـالـرـحـيـلـ عـنـ الدـنـيـاـ قـبـلـ الفتـنـةـ بـزـيـنـتهاـ.. ولا بد أن سائلاً سيسأـلـ: أـلـيـسـ فـيـ التـارـيـخـ مـلـكـ صـالـحـ عـاـشـ طـوـيـلـاـ وـلـمـ يـفـتـنـ؟!

أقول لك: نعم، هناك من عاش هذه التجربة، ولكنهم قليلون أكاد أحصـيـهـمـ لـنـدـرـتـهـمـ! فلا نجد في معاشر الأنبياء إلا داود وسليمان عليهما السلام، وأما يوسف - عليه السلام - فقصته دامية مؤلمة من أولها إلى قبيل آخرها، ولا نعلم عن تمكينه إلا قليل القليل.

وأما الزعماء والملوك والقادة فلعلك لا تجد منهم إلا حفنة لا تتجاوز أصابع اليدين، كهارون الرشيد وعبد الرحمن الناصر وملکشاه وقلة معهم..

لذلك يبقى هذا استثناء لا يكسر القاعدة، وقد ذكر ذلك الله في كتابه فقال: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلُطَاءِ لَيَنْفِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ} [ص: 24]..

فالذى يصبر على هذه الفتـنـ قـلـيلـ بـنـصـ القرآنـ، بلـ إـنـ اللـهـ إـذـ أـرـادـ أـنـ يـهـلـكـ أـمـةـ مـنـ الـأـمـمـ زـادـ فـيـ تمـكـيـنـهـاـ!!ـ قالـ تعالى: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أَوْتُوا أَخْذَنَاهُمْ بَعْثَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} [الأنعام: 44]. تمكـينـ الـإـسـلـامـ فـيـ الـأـرـضـيـانـيـ بعدـ أـنـ فـهـمـتـ هـذـاـ المـغـزـىـ أـدـرـكـ التـفـسـيرـ الـحـقـيقـيـ لـكـثـيرـ مـنـ الـمـوـاـفـقـ الـمـذـهـلـهـ فـيـ التـارـيـخـ..

أدركت لماذا كان عتبة بن غزوان يُقسم على عمر بن الخطاب أن يعفيه من ولاية البصرة! وأدركت لماذا أنفق الصديق ماله كله في سبيل الله، وأدركت لماذا حمل عثمان بن عفان وحده هم تجهيز جيش العسرة دون أن يطلب من الآخرين حمل مسئoliاتهم، وأدركت لماذا تنازل خالد بن الوليد عن إماراة جيش منتصر، وأدركت لماذا لم يسعد أبو عبيدة بن الجراح بولايته على إقليم ضخم كالشام، وأدركت لماذا حزن طلحة بن عبيد الله عندما جاءه سبعمائة ألف درهم في ليلة، وأدركت لماذا تحول حزنه إلى فرح عندما "تخلّص" من هذه الدنيا بتوزيعها على الفقراء في نفس الليلة!!

أدركت ذلك كله.. بل إنني أدركت لماذا صار جيل الصحابة خير الناس! إن هذا لم يكن فقط لأنهم عاصروا الرسول، بل لأنهم هم أفضل من فقه مغزى الحياة، أو قل: هم أفضـل من "عبد الله؛ ولذلك حرصوا بصدق على البعد عن الدنيا والمال والإمارـة والسلطـان، ولذلك لا ترى في حياتـهم تعـاسـة عندما يـمـرضـونـ، ولا كـآـبةـعـندـماـيـعـذـبـونـ، ولا يـأـسـاـعـندـماـيـضـطـهـدونـ، ولا نـدـماـعـندـماـيـفـقـرـوـنـ..

إن هذه كلـها "فرـصـ عـبـادـةـ" يـسـرـتـ لهمـ فـاغـتـنـموـهاـ، فـاصـارـواـ بـذـلـكـ خـيرـ النـاسـ.

إن الذي فـقـهـ فـقـهـمـ سـعـدـ سـعادـتـهـمـ ولوـ عـاشـ فـيـ زـمـنـ الـاسـتـضـعـافـ!ـ والـذـيـ غـابـ عـنـهـ المـغـزـىـ الـذـيـ أـدـرـكـوهـ خـابـ وـتـعـسـ ولوـ مـلـكـ الدـنـيـاـ بـكـاملـهـاـ.

إنـيـ أـتـوجـهـ بـهـذاـ المـقـالـ إـلـىـ أـوـلـئـكـ الـذـينـ يـعـتـقـدـونـ أـنـهـمـ مـنـ "الـبـائـسـينـ"ـ الـذـينـ حـرـمـواـ مـالـاـ أوـ حـكـمـاـ أوـ أـمـنـاـ أوـ صـحـةـ أوـ حـبـيـباـ..ـ إـنـيـ أـقـولـ لـهـمـ:ـ أـبـشـرـوـاـ،ـ فـقـدـ هـيـأـ اللـهـ لـكـمـ "ـفـرـصـةـ عـبـادـةـ"ـ!ـ فـاغـتـنـموـهاـ قـبـلـ أـنـ يـرـفـعـ الـبـلـاءـ،ـ وـتـأـتـيـ الـعـافـيـةـ،ـ فـتـنـسـىـ اللـهـ،ـ وـلـيـسـ لـكـ أـنـ تـنـسـاهـ..ـ قـالـ تـعـالـىـ:ـ {ـوـإـذـاـ مـسـ الـإـنـسـانـ الـضـرـ دـعـانـاـ لـجـنـيـهـ أـوـ قـاعـدـاـ أـوـ قـائـمـاـ فـلـمـ كـشـفـنـاـ عـنـهـ ضـرـ مـرـ كـانـ لـمـ يـدـعـنـاـ إـلـىـ ضـرـ مـسـةـ كـذـلـكـ زـيـنـ لـلـمـسـرـفـيـنـ مـاـ كـانـوـاـ يـعـمـلـونـ}ـ [ـيـونـسـ:ـ 12ـ].ـ

وـأـسـأـلـ اللـهـ أـنـ يـفـقـهـنـاـ فـيـ سـنـنـهـ..ـ وـأـسـأـلـهـ أـنـ يـعـزـ إـلـلـهـ وـالـمـسـلـمـيـنـ.

قصة الإسلام

المصادر: